

# الإبداع المراوغ يجابه تضاؤل هامش الحرية

## الأقنعة والرموز حيلة الفنون للإفلات من المنع والملاحقة

عرفت الثقافات الإنسانية، على مر العصور واختلاف الأمكنة، أساليب وتقنيات إبداعية مراوغة تنتهجها الآداب والفنون في أوقات الكبت والتضييق من أجل تمرير الأعمال الانتقادية والساخرة، الهادفة إلى تعرية الواقع ومعالجة سلبياته بطرق آمنة وغير مباشرة. ومن أهم هذه التقنيات طريقة الأقنعة التي لا تزال خزاناً جمالياً وفكرياً هاماً يوظف في مجالات الإبداع إلى اليوم.

بطل العمل ورفاقه بالانتقاد اللاذع كافة الأوضاع السياسية والاجتماعية والإقتصادية والسلطوية والدينية وغيرها دون محاذير.

بعد ذلك ظهر "السايلوب"، أو المسخ العملاق المفترس ذو العين الواحدة الذي يأكل البشر، كما تقول الميثولوجيا الإغريقية، ومن خلال أسطوره بلغت السخرية مداها في تقضي جوانب الانحدار والتراجع والهزيمة في المجتمع المصري المازوم، الذي بات خارطة للأوجاع والفقر والكبت والعجز والإحساس بالحصار المقيم والمأساة الكاملة، حيث "يفتك الوحش الضاري الهائج بالجميع، في البر والبحر، وتحل اللعنات".

على نحو مشابه، مضت روايات عربية كثيرة في التخاطب الساخن لكن من وراء حجب وستائر واقعة وإحالات تاريخية، ففي "الغميضة" استعار وليد علاء الدين لعبة "الاستغامية" الطفولية الشعبية ليحوّل الحياة بكل ما فيها من إحباطات إلى مسرحية فانتازية تضيء على غير هدى وتخطيط، وتختلط قسوة الواقع بالهذيان، والفظائع الممارسة

على الأرض بالكوابيس، ويصير مكان اللعب والعرائس والأقنعة معادلاً مكانياً ورمزياً لوطن الماكينات والدمى والأرجوزات، لا مجال فيه للوجوه الإنسانية الحقيقية.

واستعاد صنع الله إبراهيم صفحات التاريخ في كولاجه الروائي "1970"، مسقط خرائب الحاضر على عام رحيل الرئيس المصري جمال عبدالناصر، ومازجاً أزمات ذلك العام باللمحة الراهنة، لتستمر "الدراما المفيرة التي تعيشها الأمة" من خلال إعادة قراءته لسيرة الزعيم الراحل.

أزحت العراقية دنيا ميخائيل، والأردني جلال برجس، للحاضر، من خلال الإسقاط والإحالة إلى الماضي، فتناولت ميخائيل في "وشم الطائر" الفظائع التي أحدثها تنظيم داعش الإرهابي في العراق وسوريا على وجه الخصوص، والمسكوت عنه من ممارسات التنظيم والقوى المتحالفة معه، عربياً ودولياً، والصفقات التي أجريت تحت لواء الدولة الإسلامية المزعومة، فيما فضح برجس في "دفاتر السورق" مصير الفقيرة من المتعلمين والمتقنين في عتّان والعواصم العربية، التي كنست حطام هؤلاء البشر من حساباتها، مثلما كنست بقايا المكتبات القديمة المتهاكلة، تحت مظلة تحالف السلطة ورأس المال.

والإلى ميراث الخسارات كذلك مضى هشام الخشن في "شلة ليون"، متخذاً من التاريخ أيضاً، ومن لعبة "البوكر"،

وقد وفّرت القصيدة المناخ الأمثل للاستعارات بشتى أوجهها، ما من الشعراء والشعراء المصريين والعرب من تناول اللحظة الكائنة بقوة وصرامة، وتوجيه طعنات للحاضر الجاثم دون الخوف من صولجانه وطغيانه.

من ذلك تماهي الذات الشعاعية مع الأزهار في ديوان "أزهار تقيديني في السقوط" للمغربية عليّة الأريسي، للتعبير عن التردّي العام، وإبراز الأزمات الفردية والجماعية في الأيام المجدبة القاحلة.

كذلك، استدعاء السورية فرات إسبر في ديوانها "تحت شجرة بوذا" سيرة الحكيم القديم لقراءة الخرائب التي

شريف الشافعي  
كاتب مصري



استعمل الأدياء منذ القدم الأقنعة حتى لا يدرهم تكبيل السلطة، ولا تمعهم سيوف الرقباء. وكانت القصص الروائية على السنة الطيور والحيوانات أشهر هذه الأمثلة، كما في كتاب "كليلة ودمنة".

ويجسد التوسع في استخدام الأقنعة والرموز والفانتازيا والإحالات التاريخية وغيرها مؤخرًا، الحيل المختلفة في سائر الآداب والفنون المعاصرة من رواية وشعر ومسرح ودراما سينمائية وتلفزيونية وكاريكاتير وكوميكس وعرائس وأراجوز، وبدا كعلامة لا تقبل التشكيك على تآكل هامش حرية التعبير، وتوجس المبدعين من تبعات المصارحة ومخاطر توجيه رسائل انتقادية مباشرة.

### السرد منفجرا

من دواعي التجاء المبدعين في الكثير من الدول العربية إلى الأقنعة في ما يقدمونه من نتاجهم أن تجاوز المحاذير -أو تخفي الخطوط الحمراء، كما تُسمّى- لم يعد يُقَابَل فقط بالمنع والحجب والمصادرة، بل إن

الأمر قد يصل في أحوال غير هينة إلى التجريم والمساءلة القانونية

والعقوبة بالتغريم والحبس، تحت دعاوى شتى، من قبيل ازدراء الأديان، والمساس بتوابت المجتمع، وزعزعة الاستقرار، والإساءة إلى الضمير الجمعي، وتبني اجندات قوى هدامة

وجماعات مُعادية، وغيرها من الاتهامات الفضفاضة غير المنتهية عند حد أو تصور.

وقد لجأت مضطرة جميع الآلوان الأدبية والفنية المتعددة إلى المراوغة، والتشبث بالألعاب والحيل كطوق نجاة وسط أجواء غير مواتية، وتمكنت الأعمال المشاكسة بالفعل من تحقيق هدفها وطرح

مرادها، دون أن تعطى أحدًا فرصة ليعطل مسارها أو يوقف انتشارها وطموحها

إلى إحداث تأثير. هيمنت أجنديت الترميز والتفنن والتخيلات اللامعقولة على عوالم السرد في الأشهر الوجيزة الماضية، ففي رواية "السايلوب" للكاتب

المصري إبراهيم عبدالمجيد، تعاط مع مناجي فئسّل ثورة 25 يناير في تحقيق أهدافها على أرض الواقع المصري من خلال إخفاء

السيرة الشخصية لعبدالمجيد ذاته لتكون سيرة لمؤلف وهمي في الرواية، وبالتالي جرى تحليل الوقائع الحقيقية بحريّة باعتبارها مصنّعة، وتناول

المصري إبراهيم عبدالمجيد، تعاط مع مناجي فئسّل ثورة 25 يناير في تحقيق أهدافها على أرض الواقع المصري من خلال إخفاء

السيرة الشخصية لعبدالمجيد ذاته لتكون سيرة لمؤلف وهمي في الرواية، وبالتالي جرى تحليل الوقائع الحقيقية بحريّة باعتبارها مصنّعة، وتناول

المصري إبراهيم عبدالمجيد، تعاط مع مناجي فئسّل ثورة 25 يناير في تحقيق أهدافها على أرض الواقع المصري من خلال إخفاء

السيرة الشخصية لعبدالمجيد ذاته لتكون سيرة لمؤلف وهمي في الرواية، وبالتالي جرى تحليل الوقائع الحقيقية بحريّة باعتبارها مصنّعة، وتناول

المصري إبراهيم عبدالمجيد، تعاط مع مناجي فئسّل ثورة 25 يناير في تحقيق أهدافها على أرض الواقع المصري من خلال إخفاء

السيرة الشخصية لعبدالمجيد ذاته لتكون سيرة لمؤلف وهمي في الرواية، وبالتالي جرى تحليل الوقائع الحقيقية بحريّة باعتبارها مصنّعة، وتناول

المصري إبراهيم عبدالمجيد، تعاط مع مناجي فئسّل ثورة 25 يناير في تحقيق أهدافها على أرض الواقع المصري من خلال إخفاء

السيرة الشخصية لعبدالمجيد ذاته لتكون سيرة لمؤلف وهمي في الرواية، وبالتالي جرى تحليل الوقائع الحقيقية بحريّة باعتبارها مصنّعة، وتناول

المصري إبراهيم عبدالمجيد، تعاط مع مناجي فئسّل ثورة 25 يناير في تحقيق أهدافها على أرض الواقع المصري من خلال إخفاء



اللغة ما بين التلميح والتصريح (لوحة للفنان بسيم الريس)

التسامح والتعاون والتعايش السلمي والتآخي وما نحو ذلك. أما فنون الدراما المتنوعة، السينمائية والتلفزيونية والمسرحية، التي أرادت توجيه رسائل انتقادية واحتجاجية، فلم يكن لها بطبيعة الحال غير الاتكاء على الرموز والأقنعة والإسقاطات، والإيهام بأنها تعالج أحداثاً تاريخية، لا تخص الزمان والمكان الحاليين.

### الآداب والفنون لجأت إلى الفانتازيا والإسقاطات والإحالات التاريخية في تناولها قضايا الواقع وأزماته هرباً من الرقابة

من ذلك مسلسل "أهو ده اللي صار" للمؤلف عبدالرحيم كمال والمخرج حاتم علي، وفيلم "الكنز" للمؤلف ذاته، وفيهما اختلطت الوقائع بين الماضي والحاضر، وتخلقت مساحة من الحرية لطرح قضايا ساخنة، لم تكن ممكنة إثارها بغير هذه التداخلات المركبة.

وشهد المسرح العربي العشرات من الأعمال التي استندت إلى الأقنعة والتاريخ لتفادي التضييق والمنع والمساءلة، ونجحت في بث رسائلها بأمان لجمهور نوعي متفهم، منها على سبيل المثال "ترنيمة الفلاح الفصح" من تأليف محمد حمد وإخراج سعيد سليمان، التي استندت من التراث المصري القديم قصة انتصار الفلاحين البسطاء على ظلم النبلاء والفراعة، و"اسكوريال" التي استوحيت نص البلجيكي ميشيل دي غيلدرود لرصد معاناة الرعية وخواء عروش الملوك المتجبرين.

ومن هذه المسرحيات كذلك "المتفائل" التي استلهمت رواية فولتير "كانديد" للتهكم على الدكتاتوريات والسلطات الجائرة وسياسات الصوت الواحد، و"حريم النار" التي عالجت مسرحية الإيباني "لوركا" مفجرة ثورة على التقاليد والموروثات الاجتماعية البالية، و"البؤساء" التي ابتعثت فيكتور هوغو ممجدة فكرة المقاومة، و"علي الزبيق" التي استندت أسطورة البطل الملحمي من أجل شن غارة على منظومة الفساد والعنف في مصر (السلطان، العسكر، العسس)، وآخر منقلت بناصر البسطاء والفقراء الرسمية وأصحاب النفوذ، إلا من خلال الإسقاطات القليلة المتاحة له، والتي طرحها خلسة من خلال تناوله قضايا غير خطرة، من قبيل

وقسمته العقائد، منصباً نفسه أميراً افتراضياً للمأساة، وإماماً للمهزجين، تحت مظلة التاريخ، واستدعاء السورية لبنا شذوذ النبوءات القديمة لإدانة الواقع السوري المثقل بالضغوط والعوائق والإحباطات اللامتناهية في ديوانها "أمكث في الضد".

وفي ديوانه "حجيم"، حوّل المصري محمد أبوزيد الواقع المعيش إلى نيران لا تهدأ السننثا الحامية، فاضحاً الأجواء المحيطة وجيل العطب الذي يكبر يوماً بعد يوم بشكل فجائي صادم، ف"هناك دماء على النافذة منذ الصباح/ لن أمسحها/ حتى لا أعطي مبرراً للتاريخ أن يعيد نفسه".

وجسد العراقي منعم الفقير في "أمير كوبنهاجن" الكوميديا السوداء في وطنه الذي فتنته الأيديولوجيات

وخوّل العراقي عبود الجابري لغة القصيدة المجازية في "تلوين الأعداء" إلى غبار يحكي عن ويلات الحرب وفساد الهواء والبشر.

ولم تعد رسومات الكاريكاتير والكوميكس تتناول أزمات الواقع الشائكة، خصوصاً السياسية والدينية، بشكل مباشر، وإنما لجأت في نماذجها الحديثة إلى الحيل والألعاب والرموز أيضاً، فمن خلال قضايا اجتماعية مثل التحرش والتنمر واضطهاد المرأة مثلاً، تمكّن بعض الفنانين من تحميل مفاهيم الذكورية والأبوية بإسقاطات تحيل إلى السلطوية والدكتاتورية وغياب الديمقراطية وما نحو ذلك من دلالات.

وهو الحال في الدمى والعرائس والأراجوز وفنون السخرية المختلفة، الموجّهة للكبار والصغار على حد سواء، فلم تعد تتحدث بلسان الاحتجاج الصريح، إنما صارت تسلك دروباً ملتوية، فالأراجوز مثلاً من خلال عشرات الفعاليات التي أقيمت لإحيائه وتطويره في مصر لم يمارس دوره التاريخي كلسان منقلت بناصر البسطاء والفقراء الرسمية وأصحاب النفوذ، إلا من خلال الإسقاطات القليلة المتاحة له، والتي طرحها خلسة من خلال تناوله قضايا غير خطرة، من قبيل

خلفتها الحرب المستعرة في بلادها، وتبعات الطائفية والمذهبية والانقسام، تحت مظلة التاريخ، واستدعاء السورية لبنا شذوذ النبوءات القديمة لإدانة الواقع السوري المثقل بالضغوط والعوائق والإحباطات اللامتناهية في ديوانها "أمكث في الضد".

وفي ديوانه "حجيم"، حوّل المصري محمد أبوزيد الواقع المعيش إلى نيران لا تهدأ السننثا الحامية، فاضحاً الأجواء المحيطة وجيل العطب الذي يكبر يوماً بعد يوم بشكل فجائي صادم، ف"هناك دماء على النافذة منذ الصباح/ لن أمسحها/ حتى لا أعطي مبرراً للتاريخ أن يعيد نفسه".

وجسد العراقي منعم الفقير في "أمير كوبنهاجن" الكوميديا السوداء في وطنه الذي فتنته الأيديولوجيات

وخوّل العراقي عبود الجابري لغة القصيدة المجازية في "تلوين الأعداء" إلى غبار يحكي عن ويلات الحرب وفساد الهواء والبشر.

ولم تعد رسومات الكاريكاتير والكوميكس تتناول أزمات الواقع الشائكة، خصوصاً السياسية والدينية، بشكل مباشر، وإنما لجأت في نماذجها الحديثة إلى الحيل والألعاب والرموز أيضاً، فمن خلال قضايا اجتماعية مثل التحرش والتنمر واضطهاد المرأة مثلاً، تمكّن بعض الفنانين من تحميل مفاهيم الذكورية والأبوية بإسقاطات تحيل إلى السلطوية والدكتاتورية وغياب الديمقراطية وما نحو ذلك من دلالات.

وهو الحال في الدمى والعرائس والأراجوز وفنون السخرية المختلفة، الموجّهة للكبار والصغار على حد سواء، فلم تعد تتحدث بلسان الاحتجاج الصريح، إنما صارت تسلك دروباً ملتوية، فالأراجوز مثلاً من خلال عشرات الفعاليات التي أقيمت لإحيائه وتطويره في مصر لم يمارس دوره التاريخي كلسان منقلت بناصر البسطاء والفقراء الرسمية وأصحاب النفوذ، إلا من خلال الإسقاطات القليلة المتاحة له، والتي طرحها خلسة من خلال تناوله قضايا غير خطرة، من قبيل



تتناوله قضايا غير خطرة، من قبيل

مجالاً لتعربة سلوكيات المجتمع المصري الجديد، وأزماته الحالية، وعلى رأسها الطبقيّة التي بلغت ذروتها خلال الأعوام الأخيرة، حيث باتت الحياة بمثابة "مقامرة" ورحلة خداع وغش وتدنيس مليئة بالسقطات الأخلاقية والمهالل الإنسانية.

واستدعت الروائية منال السيد في "غنا المجاذيب" عوالم السينما، لتتخذ من الأفلام العربية الشهيرة نوافذ لانتقاد أحداث الواقع وتناولها بارجحية وطلاقة، وبامتطاء "بساط البريغ" للمقارنة بين الماضي "زمن الفن الجميل" والحاضر الدامي، ووضع شخوص الرواية أيديهم على ملامح وطن تبدلت مذاقاته إلى المرارة، وانحدرت أحواله إلى البؤس والانسحاق والفقد والتقييد.

أما سعدا سليمان فقد اتخذت من "سن الياس" لدى المرأة حيلة ورمزاً في روايتها "هبات ساخنة" لتتصريح مرحلة "الياس الكامل" التي يمر بها المجتمع المصري برمته بعد فشل ثورة 25 يناير وتحطم أهدافها.

وقد وفّرت القصيدة المناخ الأمثل للاستعارات بشتى أوجهها، ما من الشعراء والشعراء المصريين والعرب من تناول اللحظة الكائنة بقوة وصرامة، وتوجيه طعنات للحاضر الجاثم دون الخوف من صولجانه وطغيانه.

من ذلك تماهي الذات الشعاعية مع الأزهار في ديوان "أزهار تقيديني في السقوط" للمغربية عليّة الأريسي، للتعبير عن التردّي العام، وإبراز الأزمات الفردية والجماعية في الأيام المجدبة القاحلة.

كذلك، استدعاء السورية فرات إسبر في ديوانها "تحت شجرة بوذا" سيرة الحكيم القديم لقراءة الخرائب التي

وقد وفّرت القصيدة المناخ الأمثل للاستعارات بشتى أوجهها، ما من الشعراء والشعراء المصريين والعرب من تناول اللحظة الكائنة بقوة وصرامة، وتوجيه طعنات للحاضر الجاثم دون الخوف من صولجانه وطغيانه.

من ذلك تماهي الذات الشعاعية مع الأزهار في ديوان "أزهار تقيديني في السقوط" للمغربية عليّة الأريسي، للتعبير عن التردّي العام، وإبراز الأزمات الفردية والجماعية في الأيام المجدبة القاحلة.

كذلك، استدعاء السورية فرات إسبر في ديوانها "تحت شجرة بوذا" سيرة الحكيم القديم لقراءة الخرائب التي



«أهو ده اللي صار»، خلق مساحة من الحرية لطرح قضايا ساخنة